في مكتبة الأسكوريال بمدريد

• أ. عبد الله حمد الحقيل •

كانت زيارة الأندلس بالنسبة لي من أعز الأمنيات، فطالما هفت نفسي إلى مشاهدة تلك المعالم والمفاخر العربية الإسلامية. وبعد زيارة تلك المرابع الأندلسية ذهبت إلى مدريد وهي مدينة حافلة بالمعالم السياحية والمشاهد الأثرية. ومكتبة الأسكوريال ... والمكتبات في كل أمة عنوان رقيها ودليل تطورها .. فهي تؤدي أصدق خدمة وأجلّها إذ تسهم في تكوين الحاضر والتهيئة للمستقبل وتُتحِف عشاق المعرفة ورواد العلم والآداب .. بينابيع ثرة من المعارف والفنون والعلوم. ومكتبة الأسكوريال من المكتبات التي تستأثر باهتمام الزائرين إذ يحرص كل فرد مهتم بالمعرفة على زيارتها ... حيث إن شهرتها تجذب الناس إليها خاصةً وإنها تمتلئ بتراث ضخم من الكتب النادرة والمخطوطات القيمة التي تعد ينبوعاً دائماً للحضارة الإنسانية والثقافة الفكرية..

وبعد زيارة لمدريد ومعالمها .. خرجت نحو مدريد القديمة ومراكزها الأثرية .. كما قمت بزيارة لبعض الأمكنة والميادين القديمة فيها، ذات القيمة التاريخية وجولة في ضواحيها وأطرافها البعيدة والقريبة والمركز الإسلامي الثقافي الذي له نشاط ثقافي ومجلة دورية تعنى بالبحوث التاريخية والمخطوطات باللغتين الأسبانية والعربية..

وفي صباح اليوم الثالث توجهنا نحو الأسكوريال وقطعنا حوالي خمسين كيلومتراً فوصلنا إلى تلك المنطقة التاريخية والتي يعتبرها الأسبان إحدى عجائب العالم، حيث تضم الكنيسة والقصر والمقبرة الملكية والدير والمدرسة الملحقة بها، وبها أمكنة مختلفة .. وبعد تجوال في المنطقة، توجهنا نحو مكتبة الأسكوريال الشهيرة والتي يوجد بها بقايا التراث الأندلسي الفكري .. وهي تقع في الجهة اليمنى من القصر وتضم بهواً واسعاً تعرض فيه مجموعة من المخطوطات التي تحتويها المكتبة ومنها مصحف كان لأحد سلاطين المغرب ..

ومكتبة الأسكوريال ليست غنية من الناحية الكمية، فهي تحوي أكثر من سبعين ألف مجلد ولكنها غنية بما تحتويه من نوادر المخطوطات العربية واللاتينية واليونانية والعبرية وغيرها، وهي تبلغ نحو عشرة آلاف مخطوط. ويبلغ ما تحتويه اليوم من المخطوطات العربية ألفي مجلد على حد تعبير أمين المكتبة.

وهذه المكتبة التي تجذب اليوم محتوياتها، جمهرة الباحثين من سائر أنحاء العالم كانت في بدايتها تتكون من المكتبة الملكية الصغيرة، ومما كان يشتريه سفراء الملك فيليب من المخطوطات النادرة من مختلف الأقطار، وضمت إليها منذ البداية بضعة ألوف من المخطوطات العربية التي جُمِعَتْ من غرناطة بعد سقوطها .. ومن سائر المدن الأندلسية، ثم زادت هذه المجموعة العربية زيادة كبيرة في عصر فيليب الثالث حينما استولت السفن الأسبانية في مياه المغرب سنة ١٦١٢م .. على سفينة مغربية كانت تنقل مكتبة سلطان مراكش، وقوامها ثلاثة آلاف مجلد في مختلف العلوم والفنون، وبذلك بلغت المجموعة العربية في الأسكوريال في أوائل القرن السابع عشر، نحو عشرة آلاف مجلد .. ثم في عام ١٦٧١ شب حريق في القصر قضى على جُلّها من الكتب فلم يبق سوى ألفي مجلد هي التي توجد اليوم في المكتبة..

بعد تمضية بضع ساعات في داخل القصر ومشاهدة المتحف واللوحات والمكتبة توجهنا بعد ذلك إلى وادي الشهداء الذي لا يعد إلا قليلاً من الأسكوريال، وقد بنى الجنرال (فرنسيسكو فرنكو) كنيسة داخل جبل، وأقام في قمة الجبل صليباً هائلاً تخليداً لشهداء الحرب الأهلية الأسبانية، وعمق الكنيسة داخل الجبل حوالي ٣٥٠ متراً، وعرضها ٢٥ متراً، تزين الكنيسة لوحات من الداخل وفي نهاية الكنيسة في القبة الرئيسية لوحة تحتوي على رسوم من قطع المزايكو الصغير، ويقال إن عدد القطع ثمانية ملايين قطعة، وعلى جوانب الكنيسة، تقع مدافن بعض ضحايا الحرب وقد قُبِر الجنرال فرنكو في نهاية الكنيسة ثم غادرنا المنطقة وأخذنا طريقنا نحو العاصمة مدريد بين جبال خضراء، وكنت أُقوِّم انطباعاتي عن الأندلس ماضيها وحاضرها في ضوء ما شاهدته في الأسكوريال، وتذكرت ما سبق أن قرأته عن حرص الأسبان على إخفاء الآثار الإسلامية عن نظر كل باحث حيث كانوا يخشون أن يتسرب الإسلام إلى تفكير وروح أبنائهم فدفنوا الكتب في هذا القصر والذي صار اليوم مزاراً للسائحين.